إضاءة

رجل واحد أحاط بلُغةٍ أشبه بالبحر

لسان العرب هديّة ابن منظور

من اطّلاعه الكبير والمدهش على مصادر تتوزّع بين نيسابور والأندلس، إلى صبره على المطوّلات وإعمال فكره التوليفيّ فيها، مروراً بتجاوزه حدود العمل اللغويّ البحت، يعطي ابن منظوراً مثالاً فريداً، في الثقافة العربية، عن الاشتغال المعجمي

نجم الدين خلف الله

لا يكاد يخلو مَبحث مُعاصر، في فُنون الثّقافة اللغويّة، من الإشارة إلى «لسان العرب» لابن منظور (1232 - 1311) مَرجعًا لغويًا، التفّ حولَه العُلماء. وفي السنوات الماضية، ارتحل هذا المرجعُ إلى رَحبات الفضاء الافتراضيّ، بعد أن رُقمنت كلّ كلماته، مما كثّف العودةَ إليه لشرح المعاني وتَحقيقها أو للتذكير بما كان مُفرداتنا المُعاصرة من جذور غفا عليها الزّمن. لكنّ وراءَ هذه البداهة قصّة رجلٍ وكتاب، حريّةٌ بأن تُستعاد.

كان الرَّجلُ مُغرمًا باختصار المُطوّلات، صبورًا عليها، يتناول بفكره التوليفي أيّ واحدٍ منها فلا يتركه إلّا وقد استوى كتابًا مُعجبًا، بعد أن يُعمِل فيه يدَ التشذيب والتهذيب. فقد تمكّن، بجَلَده، من اختصار كتاب «الأغاني» لأبي الفَرج الأصبهاني، و«العقد الفريد» لابن عبد ربّه، و«الذخيرة» لابن بسّام، و«مُفردات» ابن البيطار، وغيرها... حتى أنّ ناقلي سيرته، وقد ذُهِلوا بقُدرة الرجل على التّلخيص والاختصار، نَسبوا إليه خمسمئةٍ من المُختصرات، وهذا من المبالغة، بلا شكّ.

ذات يوم، قرّر أن يجمعَ ما تناثر من كُتب اللغة وأن يرتّب موادّها، فانتقى منها أمّهاتِها وطفقَ ينظم محتَوياتها. وقد اختار أن يعتمدَ منهجَ الجوهريّ (940 - 1003)، صاحب «الصحاح»، في تنضيد الكلمات، بحسب أواخرها، تباعًا إلى أوائلها، مُفردًا لكلّ حرفٍ بابًا، يَسوقه فُصولاً، ويَرمز إليها بأوائل الحروف من كلمات كلّ باب، وهو مَنهج شديد التعقيد والتجريد، وُضِعَ للمُتخصّصين ويأنف منه الطلبة المبتدئون.

ما يعنينا هنا، في سبيل استكشاف صورة المثقّف - اللغوي آنذاك، هو كيفية حصوله على الكُتب المَخطوطة، وقد كانت وقتها عزيزةً نادرة، علاوةً على كونها ثقيلة ضَخمة، يَعجز الواحد عن حَملها، فكيف بقراءتها ونَسخها والتصرّف في مُتونها اختصارًا وتهذيبًا؟ كما يعنينا التفكير المعمّق - ضمن منظور التاريخ الثقافي للمعاجم الذي نَقترحه - في طُرُقِ انتقال تلك المخطوطات الثقيلة وأنماط سيَرانها بين الناس، شرقًا ومغربًا.

فلو أخذنا، على سبيل المثال، المصادر الخمسة التي اعتمدها صاحب «اللّسان»، وتفحّصنا جذورها الجغرافيّة، لرأينا مدى اتّساع حَجم التبادل الفكريّ الذي كان يجري بين مَراكز الثّقافة الإسلامية إبّان العصر الوسيط: «فتهذيب اللغة» للأزهريّ (895 - 981) يعود إلى خُراسان، و«المُحكم» لابن سيده (1007 - 1066) كتابٌ شاع في ديار الأندلس، و«الصّحاح» للجوهري حُرِّز بين بَغداد ونيسابور، و«حاشية الصّحاح» لابن بَرّي (1105 - 1187) وُضعت في القاهرة، و«النّهاية في غريب الحديث» كتبها ابن الأثير (1160 - 1233) في الموصل... ولا ندري كيف استجلب ابن منظور نُسخها، وأيّ المراكب اتّخَذَتها تلك الكتب حتى تَصل إليه. ولكنّ الأكيد أنّ الضاد كانت هويّة جامعة، لا تعترف بالحدود ولا العُصور، أو هكذا نظر إليها الشيخ ابن منظور.

ثمّ ها هو يغوص في كلّ موادّها التي تتجاوز الثمانين ألفًا ويرتّبها جميعًا حسب نسق صارم، كأنما يتبع جداولَ رياضيّات، لا تخطئ ولا تتخلّف. والعَجبُ كيف له إيجاد الوقت الكافي بحَصر «كلام العرب الذي لا يُحيط به إلا نبيّ»، كما قال حكيم المعرّة أبو العلاء. والصّعوبة الكبرى، التي يُفترض أنّه وإيّاهم وتغلّب عليها، هي غياب حركات النّقط والإعجام من الغالبية العظمى لتلك الكلمات، إذ لم تكن مُتون المعاجم مُشكّلةً وتعسّر قراءتها، دون كدّ الرّويّة، وتقتضي جهودًا معرفيّة مُضنية، لا سيّما وأنّ حالات الإعراب لا تخضع إلى ناموسٍ مطّرد وأنّ الأمرَ فيها يتّسع، لا إلى غاية، وأنّى له أن ينضبط بقانون. ومع ذلك، أبدع الرّجل في ردّ كلّ نظير إلى نَظيره وإلحاق كلّ كلمةٍ بمُشاكلتها حتّى أتى كتابُه مرجعًا مضبوطًا لا يعتريه خَلَلٌ رغم اتساع تصاريف الكلام وتشعّب دروبه.

ولم يكتفِ الرجل - كما هو شائع - بنقل مضامين المصادر الخمسة ووضعها كما هي، مادّة إثر مادّة، شأن النسّاخ، بل كان يناقش ما وَرد فيها من الآراء ويتعقّبها مُخطّئًا بعضها، ومُصوّبًا ما ضعُفَ منها أو مُرجّحًا. تارةً يُعمل ملَكتَه اللغوية، كما سمّاها مواطنه ابن خلدون، وتارةً ينثر من معارفه العرب في جزيرتهم، البادية والحاضرة، وما انتجوه فيها من أشياء المادة وأنظار الذهن وما صاغوه عنها من أمثال وأقوال. فكانت كلّ مادة عبارة عن قصّة مصغّرة تُسرد مسيرة كلمات وتعرض سلسلة إحالاتها على جوانب ثريّة من مغامرة العَرب في التاريخ، بصَحراءَ لا تَنتهي منها الكثبان.

إلا أنّ هذه النزعة العقلانيّة، اللافتة بأطرادها وتماسكها، قابَلَها - وهذا من الغريب - أمران، قلّما التفتَ إليهما الباحثون في سيرة الرّجل، مع أنّهما في مُقدّمة «اللسان» ظاهران دامغان. أوّلهما الفصل الذي خَصّصه لتفسير الحروف المُقطعة الواردة في بعض سُوَر القرآن، وفيها التَحف ابن منظور لباس المُفسّرين وأوزرَ أقوالَهم ورجّح بين خلافاتهم، وعَلّل البدْء بمثل هذا الفصل بسَعيه وراء «تركة كلام الله، قبل البدء بكلام النّاس». والثاني تخصيص باب «لألقاب الحروف وطبائعها وخواصّها»، ذُكر فيه ما للحروف، حسب تصوّرات كانت سائدةً في القرون الوسطى، من آثار «الأعمال العظيمة» وأنواع المعالجات وأوضاع الطّلسمات ونفعها الشّريف وخصوصيّة بالأفلاك المُقدّسة»، والكلامُ اقتباسٌ من مُقدّمته، مما يشي بوجود رؤى سحريّة اقترنت باللغة العربية وربطتها بهالات من القداسة والأسطرة والسّحر، وهي منها براء. وبعد سنواتٍ من الجمع والترتيب، استوى اللسان ثم غاب في متاهات سنّةٍ من قُرون الركود.

وكاد «اللسان» أن يبقى أثرًا من عيون التّراث، تُحفةً تُستطرف ولا تُستخدم، لولا أن سَخّر الأديب السوري يوسف خيّاط (وُلد عام 1927)، في عُصرنا، نفسَه لإعادة ترتيب المادّة الضخمة التي احتواها، على حسب أوّل حرفٍ من المادّة المُجرّدة: ثلاثيّة أو رباعيّة، بعد أن أخرجه، بمساعدة نديم مرعشلي (1926 - 1999)، من زميم المعاجم، قصار المرجع الرئيس وأتيحت كنوزُهُ للطالبين. ثم أضاف له حياةً جديدة عبر تلك التكملة، الواقعة في جزء كامل يشمل المُفردات العلميّة المستحدثة، ويغطّي مئات المفردات المولدة في قطاعات الطبّ والاقتصاد والنبيت والوحيش، وكان ذلك سنة 1950.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

لم يكتفِ بجمع المادة، بل ناقش وحقّق ما ورد فيها من آراء

كاد «اللسان» أن يبقى أثرا لولا الاديب السوري يوسف خياط

الموسوعيّة في الفقه وعلم الكلام والحديث والأنساب ما يُحقّق به كلّ معلومةٍ ويتأكّد من وجاهتها ومطابقتها لما جاء في الآيات. وقد تجاوزَ هذا اللغويّ الذي عاش بين طرابلس الغرب والقاهرة، الحدودَ اللسانية المُحضة للتعريف المعجميّ، وخاض في معتركٍ فسيح من المعلومات التي تشمل حياةَ

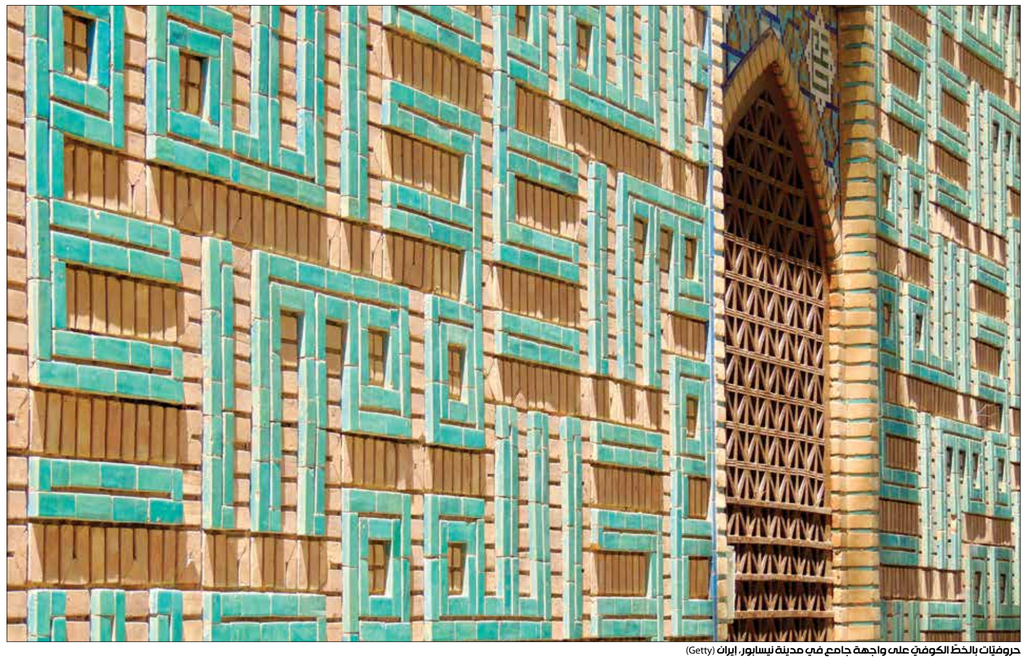

حروفيّات بالخطّ الكوفيّ على واجهة جامع في مدينة نيسابور، إيران (Getty)

إتاحةُ كنوزه للطالبين

كاد «اللسان» أن يبقى أثرًا من عيون التّراث لولا أن سخّر الاديب السوري يوسف خيّاط (وُلد عام 1927) نفسه لإعادة ترتيب مادّته الضخمة بحسب أوّل حرف من المادّة المجرّدة: ثلاثيّة أو رباعيّة، بعد أن أخرجه، بمساعدة نديم مرعشلي (1926 - 1999)، من زَميم المعاجم، قصار المرجع الرئيس وأتيحت كنوزُه للطالبين. ثم أضاف له حياةً جديدة عبر تكملة واقعة في جزء كامل يشمل المفردات العلميّة المستحدثة وتلك المولدّة.

إطلالة

حواجز في طريق الشخصيات

في اعتداء السياسة على الرواية

أين يمكن أن يذهب الروائي العربي كي يجد أرضاً حرّة لحركة مخلوقاته المتخيّلة إذاً، ومَن الذي يقتحم وجود الآخر: الرواية أم السياسة؟

ممدوح عزام

تشكو السياسة العربية تدخّل الروائيين في شؤونها، ويُعيب بعض النقّاد على الرواية هذا الاقتحام الذي قد يوصف، من قِبل النقد، بأنّه فظّ وتقريريّ ومباشر وضارّ بالفن. ولكنّ قلّما يلوم، أو يردع، أحدٌ من النّقاد السياسة على أنّها هي التي تقتحم حياة الروائيين وموضوعات الرواية معاً. ذلك أنّ السياسي، أو الحاكم، هو الذي بادر إلى التدخّل في جميع شؤون الحياة التي يعيشها العربي، منذ أن بدأت الدول العربية تستقلّ عن الاستعمار حتّى اليوم، بحيث بات على الروائي أن يسحب أبطاله، أو شخصيّاته، من الوضع السياسي، لا من الواقع بالطبع، أو أن يضطرّ إلى تأمّل حالها في هذا الوضع.

لهذا ترى أنّ الرواية العربية، مع حساب التفاوت بين بلد عربي وآخر من حيث قوّة وعنف ووقاحة اقتحام السياسة للحياة اليوميّة، هي التي تبدو أكثر انشغالاً بالسياسة. ويمكن للقارئ أن يضع اسم أي بلد عربي ويتفحّص حجم الحرّيّة الشخصيّة، التي يعتدي عليها السياسي - هذا إذا لم نتذكر كيف يُهيمن أو يدمّر الحريات العامّة الأخرى - ويخبرنا عن الهامش الذي يمكن أن يُترك لحرّيّة الرواية والروائي.

لم يذهب الروائي العربي إلى السياسة مختاراً، بل إنّ السياسة هي التي جاءت إليه: حاصرته ومنعته من أن يفكّر في قضايا الحياة عامّةً، من دون أن تكون موجودةً فيها، ولاحقت نشاطه الخاصّ أو العامّ، كمواطن أو ككاتب، وصادرت الحرّيات الشخصيّة والعامّة، وكمّمت الأفواه، ووضعت لوائح خفيّة للمنع والمصادرة، ووضعت الرقابة على التفكير والتأليف. كانت موجودةً في كلّ منعطف والتفاتة وموقف، لا في عمل الكاتب وحسب، بل في نشاط شخصياته. وذلك من خلال سياسة التسلّل الإجباري إلى حياة جميع المواطنين بلا استثناء، فلا يمكنك أن تتعلّم، أو تعلّم أولادك، أو تجد عملاً، أو تسافر، أو تبدأ مشروعاً ما، أو تفتح دكّاناً، أو تستأجر بيتاً، من دون أن تجد السلطة أمامك، أو وراءك، أو على أحد جانبيك.

فإذا تحدّثت الرواية عن الحب أو الصداقة أو العزلة أو الحنين، فإنها سوف تجد السياسة والسياسي يضعان الحواجز وأسلّة الرقابة في طريق شخصيّاتها المتخيّلة. ولهذا باتت السياسة تقبع في كلّ زاوية من زوايا الروايات، بما فيها تلك التي حاولت الخروج من قالب المواجهة المباشرة مع السلطة. ومع ذلك، فإنّ المشكلة ليست في وجود سياسة في الرواية (هناك نوع روائي يطلق عليه النقّاد اسم «الرواية السياسية»)، بل في وجود السياسة كعنصر مُهيمن على مصير جميع الشخصيات في الواقع الذي تستمدّ منه الرواية شخصيّاتها وأحداثها. المسألة هنا لا تتحدّث عن علاقة بين الثقافة والسياسة، بل عن رغبة السياسة في الهيمنة على الحياة العامة كلّها، ومنها الثّقافة، أو الكتابة الإبداعية بشكل عام.

تظهر السلطة مثل البُعْبع أمام الروائي. إنها تقبع في كلّ مكان وزمان من حركة الروائيين وتفكيرهم وأحلامهم وخططهم للحاضر والمستقبل. فأين يمكن أن يذهب الروائي العربي كي يجد أرضاً حرّة لحركة مخلوقاته المتخيّلة إذاً، ومَن الذي يقتحم وجود الآخر: الرواية أم السياسة؟

(روائي من سورية)

لم يذهب الروائي العربي إلى السياسة بل جاءت إليه

عمل لـ انطونيو تابيس

وقفة مع

هشام حذيفة

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أسئلة سريعة حول انشغالاته الإبداعية وجديد إنتاجه وبعض ما يودّ مشاطرته مع قرّائه

الدار البيضاء ـ العربي الجديد

■ ما الذي يشغلك هذه الأيام؟

يشغلني حال الحرّيات في المغرب، خصوصاً منها حرّية التعبير. ويشغلني أيضاً وضع الفئات الاجتماعية الأكثر هشاشة ضمن سياق جائحة كورونا ومخلّفاتها.

■ ما هو آخر عمل صدر لك وما هو عملك القادم؟

عملي الأخير صدر في أواخر 2020، وهو كتاب بالفرنسية عنوانه «طفولة في المغرب.. هشاشة بوجوه متعدّدة» (منشورات «أون توت لاتر») تناولتُ فيه واقع الطفولة في بلادي. أمّا عملي المقبل فسيكون تحقيقاً حول الأمراض العقلية.

■ هل أنت راضٍ عن إنتاجك ولماذا؟

نسبياً، أعتقد أنه لو توفّر لي المزيد من الوقت ومن الإمكانيات، أستطيع أن أقدّم تحقيقات أكثر تعمّقاً وبحثاً.

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، أي مسار كنت ستختار؟

أختار أن أكون موسيقياً. فعبْر الموسيقى يمكن أن نتواصل مع أكبر عدد من البشر، كما أننا عبر الموسيقى - وهذا الأهمّ - نمنح المتعة للآخرين.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

مزيد من التضامن، ومزيد من الشعور بالآخر، وأتمنى أيضاً تصرّفاً أكثر حكمة عند استخدام الموارد البيئية في كوكبنا.

يحتاج عالمنا مزيداً من التضامن، ومزيداً من الشعور بالآخرين

■ شخصية من الماضي تودّ لقاءها، ولماذا هي بالذات؟

أودّ لقاء الكاتب النمساوي ستيفان تسفايغ، أحب أن يحدّثني عن قدرته على الجمع بين كونه روائياً كبيراً وكاتب محاولات متميّزاً.

■ ماذا تقرأ الآن؟

بصدد قراءة كتاب «أغنية سليمان» لـ توني موريسون. إنها لوحة بشريّة أخرى تقدّمها هذه الكاتبة الأميركية المبدعة.

■ ماذا تسمع الآن. وهل تقترح علينا تجربة غنائية أو موسيقية يمكننا أن نشاركك سماعها؟

أعيد اكتشاف أغاني الفنان المغربي محمد فويتح بكثير من المتعة، وأدعوكم بشكل عام إلى سماع التراث الموسيقي المغربي لسنوات الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

■ صديق يخطر على بالك أو كتاب تعود إليه دائماً؟

أعود إلى كل كتب الروائي الروسي فيودور دوستويفسكي. تتناول أعماله مواضيع تخترق الأزمنة والتقليعات الأدبية.

هشام حذيفة

بطاقة

كاتب مغربي من مواليد 1969 في الدار البيضاء. عمل منذ 1996 صحافياً في العديد من المؤسسات الإعلامية، ولا سيّما صحيفة «البيان» التي أدار فيها قسم «المجتمع». راسل، بين 1999 و2002، مجلة «أفريك ماغازين» في نيويورك. واشتغل، طوال مشواره المهني، بمواضيع اجتماعية مثل حرّية المعتقد وحقوق المرأة ووضعية المهاجرين الأفارقة، إضافة إلى الصحافة. يعمل أيضاً مع دار النشر، حيث أسّس مع كنزة الصفريوي منشورات «أون توت لاتر» المتخصّصة في كتب التحقيقات الصحافية. وهو يدير فيها سلسلة «تحقيقات»، وقد صدر ضمنها كتابه الأخير «طفولة في المغرب.. هشاشة بوجوه متعدّدة» (2020). كما صدر له: «ظهر المرأة. ظهر البغل: منسيات المغرب العميق» (2015)، و«التعصّب الديني: غوص في الأوساط المتشدّدة في المغرب» (2017).

فعاليات

حتى الثامن من آذار/مارس المقبل، يتواصل المعرض التشكيلي **ما كُتِمَ**، والذي افتُتح، أوّل من امس الاربعاء، في غاليري «ريزوم» في الجزائر العاصمة. يجمع المعرض اعمالاً لـ **صونيا مرابط** و**عبدو شانان**، وهو مشروع جرى تطويره ضمن ورشة حملت عنوان **رمشة عين** انجزه الغاليري بالشراكة مع مؤسّسة «ديما سينما».

يقيم «مركز خليل السكاكيني الثقافي» في رام الله، عند الخامسة من مساء غدٍ السبت بتوقيت فلسطين، مداخلةً عبر منصّة «زووم» لـ **عالية الروسان**، بعنوان **التعاونيات الثقافية**، ويليها حوارٌ معها. تأتي الندوة ضمن لقاءات حوارية ينظّمها المركز تحت عنوان **الحماية الاجتماعية في القطاع الثقافي**، والتي تناقش وتحاول اقتراح حلول لمشاكل المشتغلين في الحقل الثقافي.

على صفحة «مركز الحرية للإبداع» (مصر) على فيسبوك، تُبث يوم الاربعاء المقبل، 17 من الشهر الجاري، محاضرة بعنوان **التنوير في الفكر العربي الحديث** يقدّمها استاذ الفلسفة في «جامعة الإسكندرية» **اشرف منصور** (الصورة)، وتأتي ضمن سلسلة «تراث التنوير في الشرق والغرب» التي بدأها الشهر الماضي.

عبر منصّة «زووم»، يقام اليوم مؤتمر بحثيّ بعنوان **نساء في الأدب** بتنظيم من «ميزون دولا ليتيراتور» (فرنسا) بمشاركة باحثين من مختلف فروع العلوم الإنسانية والدراسات الادبية. هذه هي الدورة الثالثة من المؤتمر، وتأتي تحت عنوان **حدّة، مشاركة، حذر، تباعُد: نظرات حول الالتزام بصيغة المؤنّث**.